مركز نماء للبحوث والدراسات
Nama Center for Research and Studies

namacenter

أوراق نماء

الوساطة في التربية الدعوية

علي زلماط

بسم الله الرحمن الرحيم

د: علي زلماط[1]

يختلف الدين الإسلامي عن باقي الأديان، من حيث كونه دينًا لا يدعو إلى المشيخة الكهنوتية، أو إلى أي نظام يؤسس لوساطة بين الخالق والمخلوق، عبر سلسلة من رجال ونساء الدين، بدءًا من صاحب الاعتراف، حتى وارث السر الإلهي.. لم يكن دينًا يأمر بالإيمان والخضوع والخنوع إطلاقًا قبل التفكر والتأمل، ولم يحجر على العقل ويكتفي بالقلب، بل جمع بينهما.

إن الإسلام دين لا يشبه الأديان ذات الطابع الكهنوتي الهرمي، فمنذ نزول أول كلمة من القرآن الكريم «اقرأ» على النبي محمد صلى الله عليه وسلم، هذه الكلمة المتضمنة للتأمل والتدبر والفهم والإدراك ثم الإنتاج والإبداع، قد أسس نظام التلقي المعرفي على وحدة المصدر ووحدة المرجع ووحدة المنهج، الذي يستمد من القرآن والأحاديث النبوية، أو الوحي الشريف بصفة عامة.

وحينما أخبر النبي عليه الصلاة السلام أصحابه بأن خير القرون هي تلك القرون الثلاثة الأولى: قرن الصحابة والتابعين وتابع التابعين، فإنه قد نبههم إلى أن الأمة الإسلامية ستصاب في منهج تلقي دينها ومعارفها، مما سيدفع بها إلى الانحراف

(1) أستاذ سلك الابتدائي، وباحث الدكتوراه، شعبة الدراسات الإسلامية، تخصص مقارنة الأديان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية-سايس-فاس. ali.zalmat@gmail.com

عن المنهج النبوي القويم، وستدخل في انتكاسة ونكوص على مستوى التدين الشعبي، وقد يدفع بها إلى الصراع المسلح الدموي، وقد كان ذلك ابتداء من القرن الثالث الهجري والقرن الرابع الهجري، حينما استخدمت مناهج غريبة لفهم الدين الإسلامي، (هذا هو عين الوساطة)، فبدل الالتزام بتوحيد المصدر والمنهج في المعرفة الدينية، تمكنت الفلسفات الوافدة من عقول المسلمين، في الفهم الديني والتربية الدينية.

في هذا الصدد، بين أيدينا كتاب ألفه الدكتور فريد الأنصاري المغربي سماه «التوحيد والوساطة في التربية الدعوية»، وهو كتاب ينقسم إلى خمسة فصول، وقد خص هذا الكتاب للتأصيل للمصدرية للكتاب والسنة، والمرجعية في فهم الدين خلال القرون الأولى، وتأثير الوساطة بعد القرن الثالث في التربية الدعوية والتدين الشعبي، وفي تقهقر الأمة حضاريًّا بعدما استبدلت بالمنهج النبوي المنهج الوافد في الفهم الديني، بتقديمه لنماذج على مستوى العقيدة والفقه والسلوك. ليختتم كتابه بالحديث عن المدرسة التأصيلية والدعوة إلى التوحيد، التي عرفها التاريخ الإسلامي. وفيما يتعلق بعصرنا فقد خصص فصلًا للحديث عن حركة الوعي الإسلامي الحديث بين التوحيد والوساطة.

ونحن سنركز على نماذج الوساطة في التربية الدعوية، التي أشار إليها الدكتور فريد الأنصاري، في العقيدة والفقه والسلوك أو التصوف.

✸ أولًا: الوساطة في العقيدة.

لقد عرفت الأمة الإسلامية ابتداءً من القرن الثاني والثالث الهجريين، دخول ثقافات وفلسفات أجنبية عديدة، وغريبة عن الإسلام، بفعل التوسع الحضاري الذي عرفته الأمة الإسلامية آنذاك، ثم بسبب حركة الترجمة التي نشطت في عز الدولة العباسية، وبإشراف رسمي من قبل الحكام والأمراء (الدولة). إذ ترجمت كتب المنطق والفلسفة

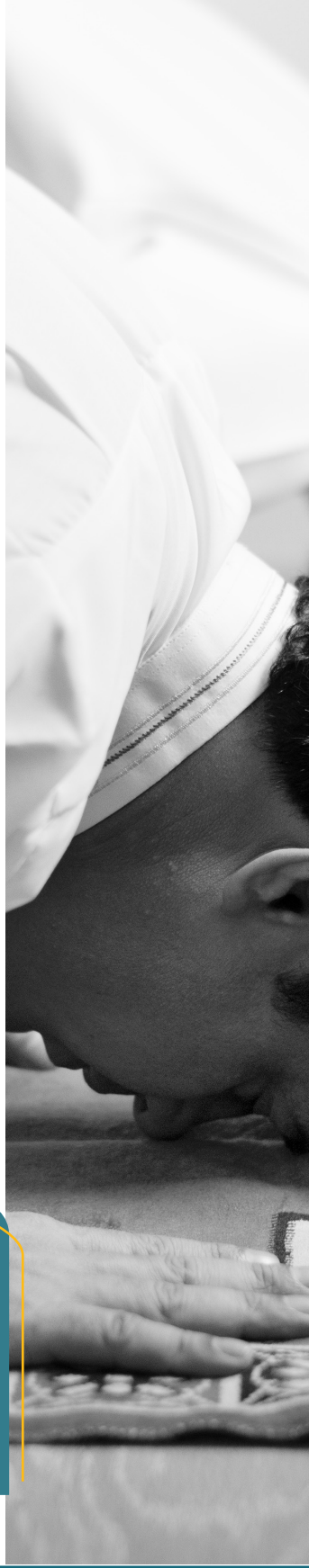

اليونانية الإغريقية إلى العربية، وكذلك كتب الأمم الأخرى، إلا أن الحظ الأوفر كان للفلسفة اليونانية.

وقد نتج عن هذه الحركة، وعن هذا الاحتكاك بالثقافات، ظهور «علم الكلام» في أواسط النخب العلمية، وبالأخص المعتزلة، للدفاع عن العقيدة الإسلامية بالأدلة العقلية، ولمواجهة الوافد الأجنبي. إلا أنهم (المعتزلة) قد افتتنوا بهذا النظام الفكري والمنطقي للفلسفة الإغريقية، فسقطوا في فخه، وتأثروا به أيما تأثر، وصار فهم الاعتقاد عندهم، يخضع لتلك القناة المذهبية الاعتزالية، المؤسس على أصول خمسة: التوحيد، العدل، الوعد والوعيد، المنزلة بين المنزلتين، ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. إذ أصبحت هذه الأصول بمثابة «مقاييس لفهم العقيدة الإسلامية، فتؤول النصوص القرآنية على وقعها، وترد الأحاديث أو تقبل بناءً على مناسبتها لها، أو عدم مناسبتها».[1]

إلا أن المذهب الاعتزالي (والمذاهب المشابهة له) لم يتمكن من التدين الشعبي، ولم يعرف انتشارًا واسعًا وسط الجماهير العامة، بالرغم من المساندة السياسية التي حظي بها في فترة من الفترات، ويعود السبب إلى نبذ علم الكلام من قبل علماء السلف والفقهاء والمحدثين. فبقيت وساطته الاعتقادية منحصرة بين العلماء والنخب العالمة فقط.

لكن، وابتداءً من القرن الرابع الهجري، وبعد اعتزال الإمام أبي الحسن الأشعري المذهب الاعتزالي، والعدول عنه إلى مذهب أحمد بن حنبل، تغيرت مواقف العلماء والفقهاء من علم الكلام، وباركوا موقف أبي الحسن الأشعري في الدفاع عن العقيدة الإسلامية بالأدلة النقلية والعقلية، وهو موقف مكن من نشر العقيدة الأشعرية في أرجاء العالم الإسلامي، بشكل قوي، بل وأصبحت عقيدة الجماهير.

يقول الدكتور فريد الأنصاري: «ظهور أبي الحسن الأشعري، على أنه يقدم عقيدة أهل السنة والجماعة، بدأت مواقف

(١) التوحيد والوساطة في التربية الدعوية، الدكتور فريد الأنصاري، سلسلة كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، العدد ٤٨ رجب ١٤١٦هـ، السنة الخامسة عشرة، الجزء ٢، ص: ٣٢.

العلماء تتغير من علم الكلام، من الرفض المطلق إلى التبني المطلق، والسقوط في فخ الوساطة الاعتقادية..»،[1] وخاصة أنه (الأشعري) لم يقدم نفسه بصفته مؤسس مذهب جديد في علم الكلام، بل حرص تمام الحرص كما حرص أتباعه، على أن يظهروه أنه للصحابة والتابعين وللفقهاء ورجال الحديث لأهل السنة، تابع ليس له في كل ما قال به رأي مستحدث». (نقلًا عن في علم الكلام ١٥/٢).[2]

لقد كانت الأشعرية بمثابة رد فعل تاريخي على حركة الاعتزال وعقيدة المعتزلة، ولذا فكثير من مواقفها محكومة وخاضعة لمنطق (رد الفعل)، «فحيث غالت المعتزلة في القول بالتحسين والتقبيح العقليين نفت الأشعرية ذلك بإطلاق، كما عمدت إلى تأويل الصفات الإلهية وحملها على المجاز اللغوي. فقد تصرفوا في تقديم العقيدة الإسلامية إلى الناس، حتى صارت تدينًا ومعتقدًا لدى غالب المسلمين، إليها يرد كل كلام في الاعتقاد، وعليها يحمل كل نص شرعي، فإن وافق تصورها فذاك، وإلا أُوِّل تأويلًا».[3]

والمعلوم أن الإمام أبا الحسن الأشعري له مذهبان في الاعتقاد بعد الاعتزال: مذهب يثبت فيه عشرين صفة، وهو الأكثر انتشارًا، ومذهب بينه في كتاب «الإبانة في أصول الديانة»، زاوج فيه بين الأدلة النقلية والعقلية، في توضيح وبيان عقيدة المسلمين. لكن، غالبية الأشاعرة ينفون نسبة هذا السفر لصاحبه تعصبًا وتقليدًا إلى الآن.

ويضيف الباحث، أن التقليد قد زاد من نشر العقيدة الأشعرية، إلى درجة أنه سهل للخرافة أن تجد مكانًا لها ضمن عقائد المسلمين، فقط يكفي أن يباركها أحد ممثلي المدرسة الأشعرية لتصير عقيدة شعبية. وهنا يقدم لنا نموذجًا حيًّا (للخرافة) للتعسف في تفسير وتأويل أمور غيبية، كان الأسلم فيها تفويض أمرها إلى علم الله إن لم يرد فيه نص صحيح.

(١) نفسه، ص: ٣٤.
(٢) نفسه، ص: ٣٤.
(٣) نفسه، ص: ٣٦.

كما فعل «الباجوري» في تفسير العرش، إذ قال: «هو جسم نوراني، علوي، عظيم، قيل من نور، وقيل من زبرجد، وقيل من ياقوتة حمراء.. هو قبة فوق العالم، ذات أعمدة أربعة، تحمله أربعة من الملائكة في الدنيا وثمانية في الآخرة، لزيادة الجلال والعظمة، رؤوسهم عند العرش في السماء السابع، وأقدامهم في الأرض السفلى، وقرونهم كقرون الوعل، ما بين أول قرن، ومنتهاه، مسيرة خمسمائة عام».[1]

وغيرها من النماذج من الخرافات والآراء العقدية ما أنزل الله بها من سلطان، أو من تعسف في التأويل، والمنتشرة طيلة فترة الانحطاط، وفترة الركود، حيث إغلاق باب الاجتهاد، وإبطال العقل، والاكتفاء بالتقليد والتلقين، دون الرجوع إلى وحدة المصدر والمنهج في الفهم.. وقد زاد أيضًا من الوساطة العقدية، التأثير الشخصاني لعديد من العلماء والمفكرين المسلمين، الذين حظوا بمكانة مرموقة في العالم الإسلامي آنذاك، كأبي حامد الغزالي، والإمام الجويني، والإمام الباقلاني، وغيرهم... فالتأثير الشخصاني لهؤلاء الأئمة، مع نظام التلقين والتقليد، «صار يسلم إطلاقًا لكل ما هو أشعري، كأنه صادر عن الله، حتى جعل بعض مؤرخي علم الكلام، يرون العقيدة الأشعرية هي عقيدة السلف نفسها كما يصورها القرآن الكريم والسنة النبوية».[2] فبدل أن تقدم العقيدة الإسلامية للناس في إطار نظام التزكية، التي بها علم النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه، تستمد رونقها من روح نصوص القرآن، وتحمل في كنهها تربية وبركة، قدمت عبر هذه الوساطة الكلامية في قوالب فلسفية جدلية، فارغة من المحتوى التربوي.

✸ ثانيًا: الوساطة الفقهية:

إذا كانت الوساطة العقدية (الكلامية) قد شكلت عقائد الناس في صور فلسفية جدلية، خالية من التزكية التربوية، التي تستمد قوتها ورونقها من النصوص القرآنية. فإن

(١) نفسه، ص: ٣٨.

(٢) نفسه، ص: ٣٩.

الوساطة الفقهية قد تجلت مظاهرها في المشيخة الكهنوتية، وهي أبشع صور الوساطة، بفعل انتشار التقليد المذهبي، والتعصب المذموم لآراء الرجال، بل وعدها معيارًا، بها تقبل النصوص أو ترد. وقد أسهم في هذه البنية النظام التلقيني الذي عرفت به المدرسة الإسلامية ابتداءً من القرن الرابع الهجري، وستتعمق بنيتها أكثر إبان القرون المتأخرة.

يقول فريد الأنصاري: «لم يكن التقليد الفقهي يعني شيئًا، غير اغتيال العقل، وتقمص ذات الوسيط، وترسم آرائه في تنزيل الدين على أفعال الناس وتصرفاتهم، فالكل كان يعلم أن الكتاب والسنة هما المصدران الوحيدان للتدين، بيد أن المقلدة حصرت قدرة الفهم والاستنباط في مجموعة معينة من الأئمة، صارت أقوالهم فيما بعد متنًا تشريعيًّا، بسبب ما أضفي من العصمة اللاشعورية على اجتهاداتهم». (ص٤١).[1]

فالتقليد الفقهي الذي فشا في الأمة الإسلامية هو عين الوساطة، الذي جر على الأمة ويلات الانحطاط الحضاري، والخلل على مستوى التعبد العام، حيث إن الفقه يعد أكثر صلة بالتربوية الدعوية، ففساده وصلاحه يظهر بشكل جلي في التعبد اليومي للجماهير. والوساطة الفقهية ربطت التعبد اليومي في حياة الناس بوسطاء، مارسوا نوعًا من الكهنوت على تدين الجماهير. (ص٤٨). وقد وصل بها الحال إلى درجة تقديس الأئمة، وإضفاء شيء من القداسة على أقوالهم، دون تكليف النفس الرجوع والنظر في الأدلة.. فالأئمة قد حاربوا التقليد والوساطة بجميع أشكالها، وقد كانوا يدعون طلابهم دائمًا بالرجوع إلى الوحي الشريف والالتزام بوحدة المصدر والمنهج، فكان إنتاجهم الفقهي يزخر تربية وتزكية. في حين أن المقلدة ومقلدة المقلدة قد نجحت في ترسيخ القطيعة المصدرية بين الناس وبين كتاب الله سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل شكلت عائقًا أبستمولوجيا (كما يعبر د فريد الأنصاري)، «يحول دون بروز العقليات الإبداعية والفاعلة في المجتمع».[2]

(١) نفسه، ص: ٤١.

(٢) نفسه، ص: ٤٢.

لقد كانت القاعدة «كل حديث يخالف ما عليه أصحابنا فهو مؤول أو منسوخ»، هي أهم مظاهر الوساطة الفقهية التي طغت خلال القرون التابعة للقرن الرابع الهجري، وبالأخص تلك المرحلة التي دخل فيها الفقه التي تسمى بمرحلة مقلد المحض، وكان القرن الثامن الهجري خير نموذج. وتقوم هذه القاعدة على جعل نصوص المذهب أو أقوال الشيخ حاكمة على نصوص كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، ومعيارًا يحكم بها ما ورد عليه.

وتسمى هذه المرحلة بمرحلة الحواشي وشرح الشروح، وهي مرحلة اغتيال العقل عن التجديد والإبداع، بدعوى أنه لم يبقَ للخلف ما يضيفوه على ما أنتجه السلف، فحكموا على العقل بالموت، وحجروا على الناس دينهم، وانتشرت الخرافة بين الناس، وفشت الأمية والجهل، وأصيب التدين الشعبي بالشعوذة والشرك والتبرك بالأضرحة وتعلق بالأسباب المادية، ومن ثم الانحطاط الحضاري. وقد قدم الباحث في هذا الباب أمثلة كثيرة توضح مدى خطورة الوضع، ومن بين هذه الأمثلة ما ذهب إليه بعض الأحناف تقليدًا وتعصبًا منهم، إلى الاعتقاد بأن المهدي المنتظر أو عيسى بن مريم سيقلدان مذهب أبي حنيفة رحمه الله.

وكما أشرنا سابقًا، وكما ذكر الباحث، أن المنهج التربوي الإسلامي القائم على التلقين قد أسهم بشكل كبير في هذه الوساطة، حيث صارت المدارس -وخاصة إبان القرون المتأخرة- تقوم على التلقين المذهبي، معرضة بذلك عن دراسة نصوص القرآن والحديث وتدريسها قصد التجديد والاستنباط. وقد خلف هذا المنهج التربوي آثارًا خطيرة من الناحية التربوية في التدين الشعبي، حيث خلا من القصد التعبدي المحض... «وانعدمت بركة النصوص القرآنية في تعميق الإخلاص في القلوب، لانقطاع الناس عن تدينهم بها، كما مال الناس إلى طلب الرخص من المستفتين، باعتبارهم مصادر الدين».[1]

(١) نفسه، ص: ٥١.

✸ ثالثًا: الوساطة التربوية الصوفية:

تعد الوساطة التربوية الصوفية من أخطر الوساطات التي عرفها المسلمون على مر تاريخهم إلى يومنا هذا؛ إذ جمعت بين الفقه والتربية والتأثير الشخصاني. وساعد في ترسيخ النظام التربوي القائم على التلقين والتقليد. فهي قد أسهمت بشكل خطير في شل العقل الإسلامي، ونشر الخرافات والشعوذة والدجل في التدين الشعبي العام، مما نتج عنها قرون من الركود الحضاري.

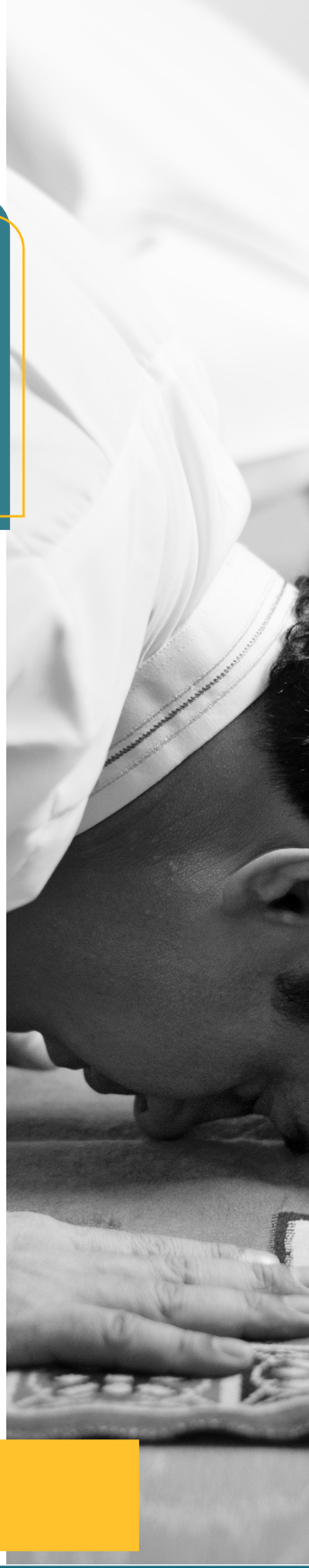

يقول الباحث رحمه الله إن فكرة الزهد والعبادة قد ظهرت خلال القرن الثالث الهجري في صورتها السنية على يد الحارث بن أسد المحاسبي والجنيد وغيرهما، لكنها لقيت رفضًا من قبل الفقهاء والعلماء؛ لكونها «تختزل المفهوم الإسلامي للعبادة في فضائل التعبد المحض، من قيام وصيام، على حساب جوانب أخرى من أركان الاستخلاف الإلهي لبني آدم في الأرض».[1]

بعد قرن من الزمن ستظهر بوادر الانحراف الوساطي في التربية الصوفية، إذ ظهرت فكرة «القطبية»، هذه الفكرة التي رسخت «فكرة الوسط بشكل لم يقع في المجالات الوساطية الأخرى، مما أدى إلى سيطرة هذه الوساطة على باقي الوساطات (العقدية والفقهية) وجعلها تحت إمرتها». وتهدف هذه الفكرة (البدعة) إلى تمرير فهوم الشيخ أو المربي بعد أن أضفي عليه شيء من القداسة والعصمة المطلقة، بل إنها تدفع بالوسيط إلى التصرف بالنص الشرعي على حسب ذوقه وهواه، بل والأخطر أصبح الفقيه يتدين كما أمر القطب، مما أدى التصوف بهذا المعنى الوساطي إلى إفساد تدين الناس، حيث التواكل والاستهلاك.[2]

إضافة إلى فكرة «القطبية» ظهرت فكرة «الغوث»، بعد أن تطور السلوك الصوفي إلى ما يسمى بالتصوف الجمعي أو

(١) نفسه، ص: ٥٨.

(٢) نفسه، الصفحات: ٥٨-٥٩-٦٠-٦١.

الطرقي، ابتداءً من القرن السادس الهجري، حيث «صار التصوف مدارس جماعية، ذات نظام سلطوي، هرمي الشكل، ابتداءً من القطب أو الغوث، ثم الأبدال، ثم الشيخ، فالمقدمين. أما القطب، أو الغوث، فلا يكون إلا واحدًا، على صعيد جميع الطرق، وبالنسبة للجيل الواحد.. ولكل طريقة شيخ، هو المرجع الأعلى فيها. وقد يترقى فيكون من الأبدال، وهم خاصة من الغوث من المشايخ.. وأما المقدمون، فهم نواب شيخ الطريقة بكل بلد».[1] إنه نظام كهنوتي هرمي شبيه بالنظام الكنسي المسيحي النصراني، مع وجود فارق في التسمية ليس إلا.

يرى الدكتور فريد الأنصاري أنه من الأسباب التي أسهمت في نشر الوساطة الروحية بين الفقهاء أنفسهم، التأثير الشخصاني لأبي حامد الغزالي رحمه الله، الذي أعطى السلوكَ الصوفيَّ المشروعية، وأغرق الأمة في شرك عبادة الوسائط من أصحاب المرقعات، وأرباب الإشارات والشطحات، وإن كان رحمه الله لم يدع صراحة إلى التزام الوسيط أو مبايعته، بل صرح ببطلان ذلك، إلا أنه ومن خلال نصوص مصنفه «الإحياء» ومصنفاته الأخرى قد رسخ فكرة الوساطة الروحية. ويضيف الباحث أن قوة شخصية «الغزالي» الجاذبية والمؤثرة، وتفشي التقليد المحض في عصره، أسباب جعلت الفقهاء يتبنون نظرية «الغزالي» السلوكية، فكان ذلك دافعًا لتهافت الناس على المشايخ والوسائط، ليأخذوا الأوراد والأذكار، مبايعين لهم، ومتوسطين بهم في تعبدهم للوصول إلى الله، اقتداءً بما فعله الفقهاء أنفسهم.

«فأصبح منطق الوساطة الروحية يجزم بأن المريد لا يمكنه الوصول إلى مقامات الإحسان إلا عبر ذات الشيخ الكامل»، وأوجب هذا المنطق على المريد ألا يراجع شيخه، ولا ينتقده ولا ينكر عليه زلته ولا خطأه ولو أتى معصية بينة، لأن عنده (الشيخ المربي) العلم اللدني (العلم الغيبي)، الذي لا يفهمه العقل البشري. بعبارة أخرى ينبغي للمريد أن يكون عند شيخه كالميت بيد مغسله[2]، يتحكم فيه كيفما شاء، وتلك هي الطامة الكبرى التي أصابت الأمة الإسلامية في تعبدها العام.

(١) نفسه، ص ص: ٧٩-٨٠.

(٢) نفسه، ص ص: ٦١-٦٢.

✸ خلاصة:

وحاصل الكلام أننا أمام عمل علمي لا يستغنى عنه، فقد رام الباحث الدكتور فريد الأنصاري رحمه الله من خلاله الوقوف على نماذج الوساطة في التربية الدعوية، عقيدة وفقهًا وسلوكًا، بعد أن أصاب الأمة مرض التقليد والتقديس المنهي عنهما ابتداءً في الشريعة الإسلامية، والمخالفان لمبدأ التوحيد الذي جاء به النبي محمد صلى الله عليه وسلم، والذي ربى عليه جيل الصحابة والتابعين وتابع التابعين، فكانوا بذاك خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

ذلك أن الوساطة في مفهومها العام تحيل إلى ضرورة وجود قنوات لفهم الدين، والتوحيد يعني التزامًا بوحدة المصدر في التلقي المعرفي العلمي الديني، الذي هو القرآن والسنة النبوية، ووحدة المنهج في فهم مقتضى الوحي الشريف، وهو منهج الرسول والصحابة رضوان الله عليهم، درءًا لتسرب أهواء النفس وزيغ العقل إلى النص الديني، وهذا لا يدل بالضرورة على نفي إعمال العقل، وإنما هو منهج يساعد العقل على الفهم والاستيعاب والإدراك.

وإن الالتزام بالتوحيد في التربية الدعوية اليوم سيعيد للأمة مجدها الحضاري، وهذا ما استوعبته كثير من حركات البعث الإسلامي الحديثة والمعاصرة، التي تدعو إليه في كل المناسبات، وتربي أبناءها عليها. وهي مهمة دينية وحضارية ينبغي أن يجند لها العلماء والمصلحين والمربين والمفكرين كذلك.

لكن، ويا للأسف ثمة حركات وجماعات إسلامية لا زالت تكرس لنظام الوساطة في تربيتها الدعوية، من حيث تقديس علمائها أو شيوخها، والاعتقاد بأن ما يصدر عنهم هو عين الحق وعين الصواب، لا يجوز انتقادها أو الجدال فيها، بأي حال من الأحوال، وإلا سيرمى الناقد بالبدعة والضلال. ويا للأسف نجد من بين هذه التوجهات تلك من حملت راية الدعوة إلى

الرجوع إلى الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة، وهي في الآن ذاته تربي الناس على الانصياع لاجتهاداتها وآرائها، كونها مستمدة من الوحي وموافقة لما عليه السلف الصالح، هكذا إطلاقًا.

وفي الأخير، أنصح بقراءة هذا الكتاب القيم، وإني أراه سِفْرًا أكاديميًّا ينصح بإدراجه ضمن المقررات الجامعية لشعبة الدراسات الإسلامية أو لكليات الشريعة.